مقدمة

يقول جاك لاكان عن علاقة اللغة بالحياة:
"أنا لست شاعراً. إنني قصيدة تُكتب. وخلافاً لما يبدو. لست من يكتب القصيدة."

هذا القول يحمل معاني عديدة منها، أن الحياة تطابق اللغة. بل إن اللغة هي الحياة، وهي ما يسير الحياة رغم ما يُظن من أن الحياة تستخدم اللغة للتعبير عن ذاتها. ونحن في هذا العدد من "باحثات" نتصدى لهذا الموقف الذي يرفع من كينونة اللغة وفعاليتها على حساب كينونة الفرد وفعاليته، فنعتبر أن للحياة المعيشة وجوداً في متناول التنقيب والرصد حتى عندما يبتعد عن ساحات اللغة وسلطتها، وأحياناً بمعزل عنها وبواسطة أدوات أخرى كالصور والمشاهد.

وفي محاولتنا الغوص بحثاً عمّا تحجبه اللغة أو تظهره، وعما يترسب بعد استنفاد قدراتها أو عمّا ليس بإمكانها أن تطاله من صور ومشاعر، أردنا استقصاء الدوافع والحيل المحبوكة، في الوعي أو في اللاوعي، وعلى المستوى الأنثوي الهوى. إذ طمح مشروع كتابنا أيضا إلى معرفة مسارات الأنوثة في مجتمعاتنا العربية المعاصرة من خلال سبر أساليب النساء وتعابيرهن، في مجتمع يهاب الفرادة ويركز على الجماعة والعشيرة والعائلة ككيان أساس، مجتمع يقصي النساء ويعتّم على حيواتهن، أو لا يضيء إلا على النمطي منها. توخينا التحري عن المعيش النسائي الحقيقي بمحاولة عزله عن اللفائف العميقة من التنميط الخيالي والرمزي الذي دأبت النسق الإجتماعية السائدة على وضعه ضمنها، تحدونا الرغبة باستكشاف المطمور واستحضاره من بين الظلال، آملات بالكشف عن خصوصيات طالما أُغفلت.

بسبب التفاوت في المناهج والخيارات عند المشاركات والمشاركين في العدد، بعداً أو قرباً من السائد والمألوف، تفاوتت الدراسات في استقصاء ما ينضح عن الأقوال والوقائع، كما تفاوتت في الغوص داخل أعماق اللغة أو خلفها أو على هامشها. ولعلّ أهم أسباب القصور عن تحقيق المرام، حين وقوعه، هو كوننا نولد في اللغة ونرثها ونتطبع إلى حد بعيد بقوالبها.

أثارت الأبحاث النسوية ذكورية اللغة المتداولة عبر الحضارات، واجتهدت لاستنباط لغة جديدة تليق بحاجات التعبير عن خصوصيات الأنثوي. لكن هذه اللغة لم يُستكمل بناؤها بعد، رغم المحاولات الدؤوبة لسبر أغوار حقائق الأنوثة من منظار غير ذكوري. وكتابنا يقع إلى حد ما،

ضمن هذه المحاولات. وهي محاولات بدأت منذ عقود على شكل تحدّ للغياب المسبل اتّخذ منحى قول ما لا يجب أو لا يصحّ قوله.

بدت أساليب تقييد معظم هؤلاء النساء وتهميشهن، وإن بدرجات متفاوتة، متجانسة ومتشابهة. وبدت بالمقابل استراتيجيات النساء في تحقيق ذواتهنّ متنوعة وغنية بالإبداعات الفردية. لا سيما وأن الباحثات والباحثين في هذا العدد أشبعوا هذه الفرادة تمحيصاً عن قرب، ورصد كثيرون منهم ما تحمله الفرادة من إيجابيات وسلبيات، فيما استشرف البعض مآل أشكال الفرادات المذكورة وتوجهاتها. لكن هذه الجهود مجتمعة لم تشمل بالطبع أشكال الأنوثة كلها وإن كانت قد شملت العديد منها، وأهميتها تكمن في رصدها فعالية النساء إلى جانب فرادتهنّ. وذلك بما قد يناقض أسلوب الاستنباط "العلمي" التعميمي، الذي لعب لفترات طويلة دوراً أساسياً في ترسيخ دونية النساء، مكرساً عبر اللغة الألفاظ الجامدة، غير الفاعلة أو غير النابضة، في وصف مسارات حيواتهنّ. فأُكثر من وصفهن كـ "ضحيات" أو "هامشيات" أو "مستكينات". بينما رواية وقائع حيوات النساء الفردية هنا أظهرت ما يعجّ به الواقع المعيش من نشاط وإبداع وسعة حيلة وتأثير بالغ في محيطهن.

ولعلّ هذه الروايات عن واقع النساء العربيات أيدت ما ذكره نيتشه حول ما يبديه المهمشون في بعدهم عن السلطة من ذكاء وتخطيط لمواجهة تهميشهم. وما يراه مفكرون أمثال إقبال أحمد وإدوارد سعيد، وما يقوله النسويون أمثال جياتري سبيفاك، من أن المهمشين هم الأقدر على كسر النمط وعلى مقاربة الأنسنة وتفهمها.

كتابنا هذا ضّم خمسة محاور للدراسات، بالإضافة إلى مشاهد–انطباعات وومضات حاولنا قدر الإمكان أن تكون خارجة عن القوالب الجاهزة، وأن تخلو من العواطف المستهلكة حيال النساء. تروي المشاهد–الانطباعات بالصور المشبعة بعواطف متعددة التلاوين، تتراوح بين الحنين والعرفان والإكبار والألم والغضب والطرافة، تجارب حياتية دالّة. فيما تختار الومضات، بما هي روايات مقتضبة الحجم مشبعة باللون المعيش، قبساً معبّراً من حياة امرأة، بتركيزه على لحظة من حياتها. فيشتعل القبس ضوءاً يسطع ويضيء نمطاً منسياً أو مكتوماً.
أما محاور الكتاب الخمسة فقد أشبعت هذه الحيوات درساً وتمحيصاً.

المحاور :

بنيوية النسائي المعيش: تناول هذا المحور الصيرورة الأنثوية انطلاقاً من اتجاهات معرفية متعدّدة، كعلوم النفس والاجتماع والانتروبولوجيا والأدب.

استكشفت دراسات هذا المحور مقاومة الإخضاع والتشريط في العائلة كسمة من سمات الأنثوي في ابتكار أو خلق معنى لذاته، تارةً في تكييف الظروف بحسب القناعات الذاتية وتارةً أخرى في تكييف الذات بحسب الظروف الخاصة بها. كما استكشفت الدراسات المكبوت واللامقال في الأنثوي، من ذلك مثلاً، "التابو" الذي لا زالت تمثّله التربية الجنسية، والخوف من الجنس الآخر لدى الشابات، اللواتي تبدو علاقاتهن بجسدهن شكلية استعراضية إنكارية للجنس، وما ولّده ذلك من تناقض أعاق تواصلهن مع الشريك. وقد تناول هذا المحور أيضاً مفهوم الفروقات بين الجنسين بوصفه مفهوماً غير معبَّر عنه. فانتقد أحد الأبحاث التحليل النفسي الفرويدي الذي ركّز توصيفه مرحلة الطفولة لدى الجنسيين مستنداً إلى نموذج الذكورة وحدها، دون التوقف عند التباين في وضعية الجنسين وتأثيراته البنيوية. خاصة وأن البنيوي في معيش النساء– كما تبدى من خلال هذا المحور– يتمثّل في كونهن حاملات أعباء التمثيل المادي والرمزي لمتغيرات وثوابت الثقافة. فبدا أن لباس المرأة لغة تواصل وصراع بين الاتجاهات الثقافية/الاجتماعية، في الوقت الذي بدا فيه جسدها موضوعاً لعلاقات القوة والسيطرة.

أما الأمومة فظهر في هذا المحور وكأن هناك اضطراباً ومراجعة في دورها. لا سيما مع وجود اختلال بين مستوى تطور المجتمع الأبوي من جهة، ومستوى تطور الدور الأمومي الحديث من جهة ثانية، وما قد يفضي إليه ذلك من اضطراب في الأدوار الأسرية.

وحين يستحضر وضع الفرد/الأم في ذاتيتها لا في عمومية الدور الأمومي، خاصة مع هجرة الأبناء، يظهر أن هوية الأمومة لم تفتقر دلالتها ولم تنحسر إلى مجرد تعبير مجازي عن التشبث بالأرض والجذور. لأن الأم التي جرت قراءتها في ذاتيتها أظهرت قدراتها على خلق أمومتها بنفسها ضمن ظروفها المستجدة.

خطاب السيرة: ركّز هذا المحور على المعرفي النُسوي والجندري. فتثير إحدى الباحثات مثلاً، العوائق المنهجية في كتابة سير النساء على مستوى فقر المصادر التاريخية عن المعيوش النسائي وندرتها، لا سيما وأن المعلومات المنشورة تنحاز إلى العام على حساب الخاص. إضافة إلى إشكاليات نظرية حول التقليد والحداثة والتعريف البطركي للعائلة، ومساهمة النساء في تكوين الحداثة.

كما تُلاحظ في هذا المحور الفروقات في كتابة سيرة امرأة بين كاتب وكاتبة. ويشير بعض الأبحاث أن النساء حين يكتبن سيرهن يواجهن التباساً بين الهوية الشخصية والهوية السردية. وكأنهن بذلك يواجهن سياقاً ثقافياً/اجتماعياً مناهضاً لتعبيرهن الصريح عن أنفسهن، كأن الذات الأنثوية تستبطن القيود الاجتماعية لتنتصب حواجزاً في أعماقها.

في مواجهة الحرب: أظهر هذا المحور أن بعض النساء قد ابدعن أساليب للمواجهة وللاستمرار في الحروب والاجتياحات والاحتلالات، أساليب خاصة بهن لمواجهة القوة العسكرية الطاغية، تكشف عن الجانب الإنساني الحقوقي والعاطفي. ذلك ما يحيل حياة النساء في الحروب إلى مواجهة دائمة لتحديات يومية قاسية من أجل التأكيد على مبادئهن الانسانية، والحفاظ على الحياة والحضارة.

وتصف رسائل إصلاح جاد من رام الله عذابات الناس في فلسطين المحتلة خلال الاجتياح الإسرائيلي عام 2002، لاسيما عذابات النساء وحاجاتهن إلى العناية بأسرهن في ظروف فائقة الصعوبة، وتجربة الولادة التي لابد منها في هذه الأحوال المرعبة.

قراءات في سير مكتوبة ومعيوشة: يُعنى هذان المحوران بتصوير الواقع الفردي المعيش والتعليق عليه مباشرة أو مواربة وقد وزعنا ما وردنا مما روته الأبحاث عن حيوات نساء عربيات، اختارهن الباحثات والباحثون إلى قراءات في سير مكتوبة وقراءات في سير معيوشة. وقد يصح توزيع المادة نفسها إلى سير ذاتية وأخرى كتبت أو رويت عن النساء، أو إلى سير من اقترن من مواقع السلطة والتأثير الاجتماعي والاقتصادي، ومن انزوين في هوامش الفقر والعمل المتواصل أو في ما املته عليهن التقاليد من وجوب حصر جهدهن في نطاق العائلة.

فمع أن كتابة النساء سيرهن الذاتية تعتبر طريقة ناجعة للتعبير عن الذات، وشكلا من أشكال مقاومة التصورات النمطية عن النساء، إلا أن ذلك لا يعني دائما أن النساء يتحررن من الموروث

في كتاباتهن. إذ استنتجنا أن فعل الكتابة بذاته كفعل مقاوم ومؤكد للوجود لا يتيح دائما الانفلات من القيود ومن الاعتقادات. صحيح أننا رصدنا تنوعا في الأسلوب وفي استراتيجيات التعبير وتجاوزاً لبعض القيود، إلا أننا لم نجد في سيرهن الذاتية المكتوبة ما يشير إلى تحررهن الداخلي وتحرر قولهن عنه.

بالمقابل نجد في الدراسات الميدانية التي اعتمدت على منطوق النساء الشفهي، أن النساء أكثر ميلاً لخرق المحظور في التعبير (علاقتهن بأجسادهن وبالجنس وبالرجل، وإبرازهن التغيير في أدوارهن في الأسرة وفي الشأن العام). كما لو أن الشفاهة شكلت وسيلة أنجع في التعبير الذاتي للنساء من المدون. أيعود ذلك فقط إلى ضغط الأنساق الاجتماعية/الثقافية الذكورية القمعية على النساء، أم يعود في جانب منه إلى أن النساء معتادات على "الحكي" و"الفضفضة" فيما بينهن أكثر من اعتيادهن على الكتابة؟ وهل تكون السير الشفهية هي المفتاح الانجع راهناً للوصول إلى عوالم النساء الذاتية المركبة والغنية؟ وهل الرجال حين يكتبون سيرهم الذاتية هم أكثر قرباً من ذواتهم، أم إن الثقافة العربية المعاصرة المكتوبة تشكو عموما من الكبت؟

ولو ميزنا بين السير التي تتناول حيوات نساء فقيرات وكادحات وبين تلك التي تتناول مقتدرات مادياً واجتماعياً ومعرفياً لظهر لنا أن النساء الوحيدات المعيلات لا زلن يرزحن تحت ما ترزح تحته الأخريات من قيود نسجها المجتمع حولهنّ، دون تمييز، وأن معظم الريفيات الكادحات في ظروف معيشية صعبة يكدن يكنّ غير مدركات لما يعطيه لهنّ عملهنّ فعلياً من حقوق، فبدت سلطتهن ملتبسة ومجالاً حيوياً لا يخضع للتحديد. ولئن أظهر بعض الدراسات أن دوائر تأثير النساء في المجتمع قد اتسعت مع اللواتي كنّ الأكثر اقتراباً من السلطة العشائرية أو العلمية أو الدينية، فإن الدراسات عينها أظهرت أن هذا الاتساع كان على حساب قمعهنّ حيواتهنّ الشخصية أو على حساب اضطرارهن لتبني قواعد أساسية وضعها المجتمع الذكوري كي لا يناصبهن العداء ويحرمهنّ من الفعالية.

بل لعل بين المهمشات اجتماعياً والملتزمات بالدور العائلي من تجد من التقدير والعرفان من أسرتها ومن المجتمع الصغير حولها ما يدفعها إلى أعلى مما تطمح إليه، بعكس المقتدرات اللواتي بدا أن عليهن دائماً دفع ثمن سماح المجتمع لهن بالدور الأوسع نطاقاً، من حقوقهن الانسانية ومن الخضوع لتحجيم يحول دون وصولهن إلى ما يحق لهن من موقع أو تقدير.

ولا يسعنا في خاتمة هذه المقدمة إلا التنويه بالأنماط الحياتية المتعدّدة للنساء التي جرى إلقاء الضوء عليها، سواء من خلال ما هو بحثي أو مشهدي أو مروي. وهذا ما ينسجم مع قولنا بالمتعدّد لا بالمفرد، بالتجربة الإنسانية لا بالجوهر. لأن إطلالات الكتاب على النساء من موقع

فرادتهّن لم يفض الى "جوهرة" المرأة، بل إنه أفضى إلى معايشة حيوات متعدّدة وإلى أساليب متنّوعة في تحقيق النساء إمكانياتهنّ في مجتمعاتنا العربية. وبقدر ما ابتعد الكتاب عن "جوهرة" المرأة الذي لا بد أن يفضي إليه كلّ شكل من أشكال الاندراج في النمطية، سواء نمطية اللغة، او نمطية الأنساق والأدوار الاجتماعية، فإنه ساهم في ترسيم بنيوي للمعيش النسائي عبر محاولات اختراق النمطية.